

ابن خلدون في مصر

للاستاذ محمد عبد الله عنان

٣

ثم عين المؤرخ في وظيفة أخرى هي مشيخة (نظارة) خانقاه بيبس، وهي يومئذ أعظم الخواص أو ملاجيء الصوفية^(١)؛ فزادت جراته، واتسعت موارده. ولكن أمد سكينته لم يطول، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق بطلها ومدبرها الأمير يلغا الناصري نائب حلب؛ وكانت نظم البلاط القاهري وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والخيانات مما يسمح بتكرار هذه الفتن؛ وكان يلغا الناصري نائب السلطنة من قبل، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان؛ وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه؛ ولكنه استطاع في فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤) أن يظفر بالعرش دونه، وأن يجرده من سلطته ونفوذه، وأن يقصبه إلى الشام. ثم سنحت فرصة الخروج ليلغا، فسار إلى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه، ففر من القلعة، ودخل يلغا الناصري القاهرة، وأعاد الصالح حاجي السلطان المخاوع إلى العرش، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً إلى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١). ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش، فقبض على الناصري، وسار إلى دمشق لمحاربة برقوق الذي استطاع أن يفر من سجنه؛ فهزمه برقوق وعاد إلى القاهرة ظافراً منصوراً، واسترد عرشه في صفر سنة ٩٢، لبضعة أشهر فقط من عزله. ويخصص ابن خلدون في «تعريفه» فصلاً لهذه الحوادث^(٢)، ويمهد له بشرح فلسفي اجتماعي يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها، ثم طغيان الحضارة والرفاهة عليها، وخروج الأقوياء منها عليها، وبثهم فيها روحاً جديداً من القوة، وتكرر هذه الظاهرة، ثم يطبق نظريته على دول المماليك المصرية منذ صلاح الدين، ويقص تاريخها باختصار. وهنا يبدو ابن خلدون كما يبدو في مقدمته، ذلك الفيلسوف الاجتماعي الذي يعنى بتعليل الظواهر والكائنات، واستقرائها في حوادث التاريخ. والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة، ففقد

(١) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع في طريق باب النصر على مقربة منه

(٢) راجع هذا الفصل في التعريف (النسخة المخطوطة) ص ١٢٢ وما بعدها — وراجع خطط المقرئ (مصر) ج ٣ ص ٣٩٢

مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذي يتمتع بعطفه ورعايته. فلما عاد الظاهر برقوق إلى العرش ردت إليه. يدل على ذلك قوله في التعليق على عود الظاهر: «ثم أعاده إلى كرسيه للنظر في مصالح عباده، وطوقه القلادة التي ألبسه كما كانت، فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته^(١)».

ولبت ابن خلدون على ذلك أعواماً ينقطع للبحث والدرس. وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧)، في الترجمة المتداولة الملاحقة بتاريخه. ولكنه يمضي في هذا التعريف مراحل أخرى، في النسخة المخطوطة التي أتينا على ذكرها؛ ويفصل حوادث حياته حتى مختتم سنة ٨٠٧، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر. والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلاً واسهاباً حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمة؛ ولهذا آثرنا الرجوع إليها إلى جانب النسخة المتداولة في كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل. غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته.

ليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة ما يستحق الذكر سوى سعيه إلى عقد الصلات بين البلاط القاهري وسلاطين المغرب ويحمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن وملوك المغرب؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية؛ ثم يعطف على مساعيه في عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس؛ وملخصها أنه كتب إلى سلطان تونس يحثه على إهداء ملك مصر، فأرسل إليه هدية من الجياد النادرة، ولكنها غرقت مع السفينة التي كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا. ورد الملك الظاهر بإهداء سلطان تونس؛ ثم بعث سنة تسع وتسعين إلى المغرب ليشتري عدداً من الجياد، فزود ابن خلدون الرسل بالارشاد والتوصية. ولكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر إرسالها؛ وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب، ومنها خيل مسومة، وعدد وسروج ذهبية. ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما «تناول بين هؤلاء الملوك من السعى في الوصلة الثابتة على الأبد»

لبت ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاماً، يحول بينه وبين توليه، على قوله، ذلك الجناح من البلاط

(١) التعريف — بولاق — ج ٧ ص ٦٢٢

الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله، انتهر السلطان أول فرصة لرده الى منصبه. وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة احدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التنى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالقيوم يعنى بضم قح ضيعته التى يستحقها من أوقاف المدرسة « القمحية » فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفى السلطان بعدئذ بقليل ؛ فى منتصف شوال ؛ فخلفه ولده الناصر فرج ، وسرى الاضطراب الى شئون الدولة ، واضطربت الفتن والثورات المحلية حيناً . فلما استقرت الأمور نوعاً ، استأذن المؤرخ فى السفر الى بيت المقدس ، فأذن له ؛ وجال ابن خلدون فى المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الخالدة ؛ وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الخليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القيامة (قبر المسيح) . يقول لنا « وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول اليه » ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام فى ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان سنة ٨٠٢ .

وفى المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسترى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ ، وأن تكراره كان مظهراً بارزاً لذلك الضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م) ثم اخترق الشام جنوباً الى دمشق . فروع مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هذه المفاجأة التى ذكرته بما عاناه بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة أنه حاول الاعتراض والتخلص ، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان « بلين القول ، وجزبل الانعام » . ويفرد المؤرخ فصلاً لحوادث تلك الحملة ، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاجقة . وكان سفر الحملة فى ربيع الثانى سنة ٨٠٣ ، فوصلت الى دمشق فى جمادى الأولى ، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء فى المدرسة العادلية ، واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ؛

(١) التعريف — النسخة المخطوطة .

وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن مؤامرة دبرها نفر من بطانة السلطان لخلعه اضطرته للعودة سريعاً الى مصر ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتن مسرعاً الى القاهرة فوصلها فى جمادى الآخرة . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزعة المماطرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينة فى يد الفاتح ، فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقاً على ماشجر بين القادة من خلاف « وبلغنى الخبر ، فخشيت البادرة على نفسى ، وبكرت سحراً الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج ، أو التدى من السور لما حدث عندى من توهمات ذلك الخبر » . وانهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوه من السور ، وألقى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذى عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، والتمس منهم مقابلة تيمور ؛ فساروا به الى المعسكر وأدخل فى الحال الى خيمة الفاتح . ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير فى قوله : « ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئاً على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشريها الى عصب المغل ، جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقاً . فلما دخلت عليه ، فانحنيت بالسلام وأوميت ايماء الخضوع ، فرفع رأسه ، ومد يده الى قبلتها ؛ وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهت ، ثم استدعانى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا ٢ » .

النقل ممنوع

للبحث بقية

(١) التعريف — النسخة المخطوطة .

(٢)

ضحى الاسلام

هو الجزء التالى لفجر الاسلام

يبحث فى الحياة العقلية للعصر العباسى

تأليف

الأستاذ أحمد أمين

الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشهيرة

وثمته عشرون قرشاً